



كلما قرأت عبارة "الطائفة الكريمة" ارتجف قلبي من الغضب، وكلما قرأت عبارة "الانتقام الأعمى" ارتجف قلبي من الذعر. ولأنَّ وجيب القلب لا يغنى ولا يفيده إن لم يتبعه عمل، ولأنَّ الإنكار بالقلب لا يكفي لمن يملك الإنكار باللسان، فقد أوجبتُ على نفسي وأوجبتَ عليَّ طائفة من كرام إخواني وأخواتي أن أكتب هذه المقالة.

سأناقش أولاً خرافتين كبيرتين، ثم أنتقل إلى جوهر المسألة وما ينبغي أن نعرفه وأن نحذر من الواقع فيه، وهو ثلاثة أخطار هائلة، ثلاث كبائر كبريات، منها ما يفسد دينانا ومنها ما يفسد آخرتنا. فأما الخرافتان فأولاًهما شراكة العلوبيين في الوطن والوحدة الوطنية بينهم وبين سائر مكونات الشعب السوري، والثانية هي خرافة "الطائفة الكريمة". وأما الكبائر الكبيرات فتجدوا الحديث عنهنَّ في النصف الثاني من المقالة، فمن شاء فليقفز إليها على الفور ويتوفر على نفسه قراءة القسم الأول لأنه من المعلوم من فقه الثورة بالضرورة.

* * *

نحن والعلوبيون شركاء في الوطن؟ كيف؟ وعلى أي أساس؟ لا يمكن أن يصفنا بأننا شركاء في الوطن إلا من يصف السجانيين والسجناء بأنهم شركاء في السجن، أو الجزارين والأغnam بأنهم شركاء في المسلح، أو الثيران ومصارعي الثيران بأنهم شركاء في الحلبة. كيف يُمنَّح وصف الشراكة لفريقين إذا كان أحدهما يبني والآخر يهدم؟ إذا كان أحدهما يُقتل والآخر يُقتل؟ إذا كان أحدهما يمد اليد بالسلام والآخر يقطعها ويرفض السلام؟

دعونا من كذبة شراكة العلوبيين في الوطن وتعالوا نسأل: ما هي شراكة العلوبيين في الثورة؟ هل ينبغي أن أخدكم وأخد نفسي وأنسج الحكايات والخرافات لأرضي دعاة الوحدة الوطنية المزعومين أم يجب أن أقول الحقيقة؟ الحقيقة التي أعرفها وتعروفونها جميعاً، فلماذا نتعامي عنها؟

إن العلوبيين بالجملة مع النظام، يشاركونه بالقتل والتشبيح والإجرام. لا يهمّني هل هم مخدوعون أو مهدّدون أو خائفون من المستقبل، الذي يهمّني هو أنهم كذلك. نعم، أُعترف بأن في كل ألف منهم خمسة وعشرين من الشرفاء، كما أن في كل ألف من غيرهم خمسة وعشرين من السفلة الساقطين المجرمين، لكن هذا لا يغير الحكم العام لأن "الأبعاض" لا تُبني عليها المصائر والأحكام. إننا نضع الأشراف الأحرار من العلوبيين على رؤوسنا ونعترف بأنه لا فرق بيننا وبينهم في شرف الانتفاء إلى الثورة، ولكن - مع تقديرنا لهم ولمواقفهم - تبقى الطائفة في جملتها محسوبة على النظام ومتحدة مع النظام وغارقة في الإجرام.

إنني أقولها بوضوح: ليس العلوبيون - حالياً - جزءاً من المجتمع السوري ولا من الوطن السوري، إنهم طائفة كانت جزءاً من الوطن إلى أن أخرجت نفسها منه واستولت عليه، ومنذ ذلك اليوم إلى اليوم هي طائفة محتلة، وقد كان يمكنها أن تصحّح موقعها مع بداية هذه الثورة ولكنها لم تفعل. لقد اختارت أن تكون جزءاً من نظام الاحتلال، لا بل اختارت أن تكون هي الداعمة والركيزة الأساسية لعصابة الاحتلال والإجرام.

ولو كان العلوبيون حقاً شركاء في الوطن والثورة - كما يزعم بعض الواهمين والمحذقين - فلماذا يتوجب علينا أن نرقص فرحاً ونطير الأخبار كلما انضم إلى الثورة علوبي؟ تشرّفنا، في كل يوم ينضم إلى الثورة ألفٌ من الطوائف الأخرى ولا يحتفل أحد. فإذاً أنا سواء ولا طائفية فلا تُملّونا بمثل تلك الأخبار، أو أن العلوبيين ليسوا منا ولستا منهم فنحتفل بانضمام أحدهم إلى الثورة كما يحتفل أهل الأرض بوصول كائن مريخي إلى الأرض!

* * *

إن من أسف السخافات أن يُضطر الضحية إلى تملّق الجلاد. الذين يقتلون السوريين أكثرهم علوبيون (قلت "أكثراً" ولم أقل "جميعهم" لثلاً أسمع رداً من المحذقين)، والذين يعنّبون السوريين أكثرهم علوبيون، والذين يذبحون أبناءهم ويفتنّبون نسائهم أكثرهم علوبيون، والذين يقودون عصابات الأمن والشبيحة وكتائب الجيش المعادية أكثرهم علوبيون. كل ذلك يعلمه الضحايا، ثم يُطالّيون بأن يَبلغوا المُرّ الذي يعلمون ولا يذكروا الطائفة العلوية إلا بخير، بل إنهم لا يجب أن يقرؤوا عن الطائفة العلوية أبداً إلا موصوفة بالكرم، فقد صار مما يهدد الوحدة الوطنية ويعرض سلمية الثورة للخطر أن يكتب أحدهم "الطائفة العلوية" مجردة، إلا أن يقول: "الطائفة العلوية الكريمة"!

أي كرامة وأي كرامة ونحن نموت ونُعذّب وتُهدم مدننا فوق رؤوسنا بأيديهم، وأي كرامة وأي كرامة وهم يصطفون مع النظام ويمدون النظام بأسباب القوة والبقاء؛ كلما سمعت أو قرأت هذا التعبير (الطائفة الكريمة) تذكرت طائر العنقاء. هل تعرفون ما الصفة المشتركة بين الاثنين؟ كلاهما من المخلوقات الخرافية التي لا تعيش إلا في أخيلة الشعراء وأحلام الحالين. يعلم الله أني قد ضاق صدري بهذا التعبير، ولقد كرّهوا إلى كلمة "الكريمة" حتى أوحى لي شيطان نثري (لو كان للنشر شيطان كشيطان الشعر المزعوم) أن أنزه عنها قلمي فلا أخطها في قرطاس!

لا يا أيها العلوبيون، لستم أبداً طائفة كريمة، فليس كريماً من يقتل أبناء وطنه، وليس كريماً من يسكت عن أبناء طائفته وهم يقتلون إخوانهم في الوطن. ولا يُكَلِّ لي أحد إن منهم مُنكرين للقتل معارضين للنظام، أفاليسْت لأولئك المنكريين المعارضين

اللسنة؟ ولا يقل لي أحد إن النظام يحاصر الشرفاء منهم وإنه يهددهم بأفطع المصائر لو تمردوا عليه أو اصطفوا مع الثوار. هلرأيتم أن أحرار سوريا لما عزموا على الثورة حملوا السماورات وعدة الشواء وخرجوا إلى ضفاف الأنهر يأكلون الكتاب ويشربون الشاي الأخضر ويلعب أطفالهم على المروج الخضراء؟ أما علمتم أنهم حملوا أرواحهم على أفههم وخرجوا إلى ساحات الحرية ليلاقوا كل بطش ونkal؟ أكلوا (هوا) لم يأكلوا كباباً وشربوا الموت الزؤام، أما أطفالهم فمنهم من فقد يده أو عينه ومنهم من فقد (العضو) من أعضائه أو عاد إلى أمه جسداً هاماً محمولاً على الأعنق.

لست طائفة كريمة يا أيها العلويون. لو كنتم طائفة كريمة لترثيم مع الثائرين ولاعتقل أحراركم مع أحرارنا ولمات أولادكم مع أولادنا وهدمت بيوتكم مع بيوتنا، أما وأنتم القتلة أو الشركاء في القتل أو الشهداء الصامدون على الجريمة، فمن أين يأتينكم الكرم وأتى تكونوا كرماء؟

* * *

إن في سوريا ثمانية عشر مليون مسلم سني، ما سمعت أحداً ذكرهم يوماً في هذه الثورة فوصفهم بالكرم، ولا وصف به المسيحيين ولا الدروز، ولا حتى الإسماعيليين مع أنهم أولى الطوائف بالتكريم لأن موقفهم من الثورة أشرف المواقف في الأقلليات. لماذا فقط تحرصون على وصف الطائفة العلوية بالكرم من دون الجميع؟

يا أيها المتحذلون: كفوا عن تلك المجاملات الفارغة التي ثابرتكم عليها سنة كاملة لم تُثمر مع "الطائفة الكريمة" أي ثمرة تُثبت كرمها، ما صنعت سوى أنها كانت خناجر في صدور الضحايا الذين ذبحناهم مرتين، مرة حينما تخلينا عنهم حتى ذبحهم المجرمون، ومرة حينما بلغ بنا اللطف والضعف أن نتملق القاتل ونقبل أياديه وأقدامه لكي نثبت له أو لأنفسنا أنها مساملون لطفاء شركاء في الوطن.

أما وقد وصلت إلى هذا الموضوع من المقالة فسوف تقولون: ما جئتنا بجديد، كل هذا نعرفه أكثر مما تعرفه ونقوله أكثر مما تقوله، فلماذا كتبت المقالة من أساسها؟ حسناً، إنني لم أضف جديداً فيما سبق، ولكنني قصدت أن أجلو المسألة بأكثر صراحة ممكنة لأصل إلى جوهرها وإلى الغاية من طرحها، وهي غاية عملية لا نظرية، لو أثنا أدركناها وعقلناها فسوف نوفر على أنفسنا المعاناة الطويلة ونجو من أسوأ المصائر.

إنما أريد أن أحذركم من ثلاثة أخطار هائلة، من ثلاث كبار كبارات: من مؤامرة لإبقاء العلويين حاكاماً لسوريا، ومن فتنة طائفية عمياء، ومن انتقام عشوائي أثناء الثورة وبعد انتصارها.

* * *

إن المؤامرة التي تتعرض لها الثورة السورية اليوم نادرة في تواريخ المؤامرات، فلم يحصل في أي زمان أن تواطأ ذلك العدد الكبير من الدول والقوى على شعب من الشعوب كما يتواطؤون علينا: أميركا وأوروبا وروسيا والصين وإيران وإسرائيل والجامعة العربية والغالبية العظمى من دول العرب، وأكثر المنظمات الدولية وجميع الأحزاب القومية واليسارية العربية، وحتى المعارضة العلمانية في الداخل السوري، اجتمعت كلها على شعب أعزل وثورة ضعيفة، فماذا يريدون؟ حماية الأسد والمحافظة على حكمه إلى الأبد؟ أبداً، لقد قطعوا من الأسد ونظامه الأمل ولا حاجة لهم به، إلا أنهم يحرصون على بقاء الطائفة، وهذا هو أعظم مقتل للثورة وأفطع نهاية لها.

هذه "المؤامرة الكبرى" تحدثت عنها من قبل وسوف تحدث عنها من بعد، ولن أزال أتحدث عنها ما بقي خطراً موجوداً، وبسببها قررت أن أكون "طائفيأ" في كتابتي -كما بدا للبعض- وأن أسمى المسميات بأسمائها بلا مواربة ولا لف ولا

دوران. إني أحذركم يا أهل الشام الكرام من مؤامرة تديرها أميركا من وراء الستار، أميركا العدو الأكبر والأول لثورتكم والصديق الأصدق والأوفي لعدوكم على مر السنين. مؤامرة تهدف إلى إبقاء العلوبيين في مراكز القوة في سوريا، في المراكز العليا في الحكم والسياسة والأمن والجيش. إياكم، إياكم أن تقبلوا ولو استمرت الثورة ألف عام.

إياكم – أيها السوريون الأحرار – أن تسلموا رقبتكم للعلويين بعد اليوم، إياكم أن توافقوا على أن يحكم سوريا العلويون فإنهم قوم لا يوثق بهم. إياكم أن تبقى السيطرة في سوريا للطائفة العلوية، لا يخدعكم أحد فيقنعكم أنها طائفة كريمة، إنها طائفة غادرة لاأمان لها. ويا من ستقولون عني طائفي: قولوا ما شئتم، تكيفنا محننا نصف قرن تحت سلطانهم، فإن أكن طائفيأ حرّاً كريماً خير لي من أن أكون مخلوقاً وديعاً مسالماً لطائفيأ لا تزيد قيمته على بهيمة من البهائم في مزرعة الأسد وورثة نظام الأسد.

* * *

الخطر الثاني الكبير الذي أريد التحذير منه هو خطر الحرب الطائفية، وقد فعلتُ من قبل فحدّرت، وأعيد اليوم التحذير. إني أتشبّث برفض الفتنة الطائفية وأعتبره أصلاً ثوريأ فقط، بل أصلاً إسلامياً وأخلاقياً وإنسانياً من أكبر الأصول.

ولن أخدع أحداً ولن أخدع نفسي فأتعامي عن الحقيقة. لقد بدأت الحرب الطائفية في سوريا، بدأها الطرف الآخر بالفعل، فماذا نصنع؟ الجواب: نتحامها ما استطعنا ونحرص على عدم الانجرار إليها، دون أن نقدم أولادنا وأنفسنا للذبح مستسلمين. كيف نجمع بين الاثنين؟ بتحديد الحدود الواضحة بين البريء والمعتدي وبين الدفاع والعدوان. إننا نعلم يقيناً أن الحرب التي يشنها النظام علينا هي حرب طائفية، ونعلم أن الطائفة العلوية في جملتها وأغلبيتها (وليس كلها بالتأكيد) هي جزء رئيسي من آلة القتل والعقاب التي تفتك بسوريا والسوريين ليل نهار، ومع ذلك علينا أن نحذّر ونحذّر من خطة النظام لجرنا إلى صدام طائفي مفتوح وإلى انتقام عشوائي.

يجب أن نعرف أولاً الفرق بين الحرب الطائفية العمياء وال الحرب العادلة المبصرة، وهو يتبيّن من الفرق في موجبات القتل والقتال؛ في الأولى يسأل المقاتل أو يسأل القاتل: قل لي ما هو دينك أو ما هي طائفتك لأقرر هل أقاتلك وأقتلوك أو أدعوك وشأنك. في الثانية يسأل: قل لي ما هو عملك وما هي جريمتك؟

في الحرب الطائفية البغيضة الظالمة يكون موجب القتل هو الانتماء إلى دين من الأديان أو طائفة من الطوائف، وهذا الشكل المجنون من الحروب لا دين له ولا أخلاق، لأن الدين يمنع من قتل البريء الذي لم يقترف جرماً، والأخلاق تمنع العداون والقتل بلا ذنب ولا محاكمة. والأكثر سوءاً هو أن المجرمين الحقيقيين ينالون فرصة كبيرة للنجاة، لأن الجموع والغوغاء يشغل بعضها ببعض، ويصرف كل فريق منهم جهده وطاقته كلها أو جلها في تعقب الفريق الآخر وقتل أفراده، فيما يراقب المجرمون الكبار المشهد من بعيد غير عابئين بموت ما داموا هم بمنجاة من الهرج والمرج والانتقام.

تجنبوا الفتنة الطائفية وإياكم أن تنجروا إليها ولكن إياكم أن تستسلموا للذبح. من اعتدى عليكم فردوّا عليه ومن ضربكم على صفحة الخد فاضربوه على صفحاتي الخدين. من قاتلكم فقاتلوه واقتلوه، مهما تكن طائفته أو دينه أو عرقه. ردوا العداون واضربوا مصدر النيران كلما أطلقتم عليهم النيران، فإن جاءكم القصف من معسكر من معسكرات الأعداء فردوّا بقصف المعسكر، وإن جاءكم من هي أو قرية من أحياء "الموالين" وقرابهم فردوّا بقصف القرية أو الحي. أكرر حتى لا يفهموني أحد خطأً وحتى لا يُنقل عني ما لم أفله: من حقنا أن نرد على العداون بمثله فقط، ولا يجوز أن نهاجم أي قرية علوية ما لم

تهاجمنا، ولا يجوز أن ننصف أي حي علوي ما لم يقصفنا، فنحن لا نحارب العلوبيين ولا نحارب غير العلوبيين، إنما نحارب النظام المجرم الذي يحتل سوريا ونحارب من يقف معه، ونحارب من يحاربنا ويقصفنا ويحتاج مناطقنا، كائناً من يكون ومن أي طائفة يكون.

* * *

الخطر الثالث الكبير الذي أريد التحذير منه هو الانتقام الأعمى والقتل العشوائي.

لقد بلغ الضيق والأسى بآلاف الضحايا أنهم ما عادوا يميزون بين المذنب والبريء ما دام الاثنان ينتميان إلى الطائفة ذاتها، وقد امتلأت القلوب بغبن لا يشفيه إلا الانتقام عشوائي من الجميع. في الشهور الأولى من عمر الثورة لم يكن المرء ليغتر على الكثير من الدعوات الهوجاء إلى الانتقام، أما الآن فإننا نجدها في كل مكان. الدعوات إلى القتل العشوائي والانتقام الجماعي لم تعد نادرة اليوم بل صار لها جمهور كبير، وهذا الأمر يفزعني غاية الفزع.

صار من الشائع في الفضاء الثوري -بما فيه من منتديات وموقع وصفحات- أن يتحدث المتهمون عن قتل العلوبيين لأنهم علوبيون، وهم يسون قتل أطفالهم ونسائهم بحجة أنهم قتلوا نساعنا وأطفالنا، ويستدلون على ذلك الرأي بقوانين العقل والدين. فهل هذا هو فعلاً رأي العقل ورأي الدين؟

يا أيها المسلمين: ماذا تفعلون بقوله تعالى: {ولَا تَزِرُوا زِرَةً وَرَزِيرَةً}؟ أي وذر يحمله أخو القاتل حتى يُقتل بجريمة أخيه؟ أي وذر تحمله زوجة القاتل حتى تُقتل بجريمة زوجها؟ لقد أباح لنا الدين أن نقتصر عيناً بعين وسنّا بسنّ، فإذا قلع المعتدي عيني فجزاؤه قلع عينه وإذا خلع سِنِي فجزاؤه خلع سنّه، صحيح، ولكن هل جزاؤه قلع عين أخيه أو خلع أسنان بنيه؟

الله تبارك وتعالى حَدَّ لعباده المؤمنين حدود الانتقام في هذه الآية: {فَمَنْ اعْتَدَ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَ عَلَيْكُمْ}، فجعل محلّ رد الاعتداء محصوراً بالمعتدي نفسه (فاعتدوا عليه)، والأخ والزوجة والولد ليسوا من نفسه. هذا هو جوهر المسألة: إن الاعتداء بالمثل هو على المعتدي نفسه وليس على غيره، لا يُفهم من الآية معنى غير هذا، وما كان لمؤمن أن يخالف أمر الله وأن يعتدي ظلماً على بريء، وما كان لمؤمن أن يُجِيرَ الجريمة لغير صاحبها ولا أن يقتل بريئاً بمذنب، ولو كان ابن القاتل أو أخيه أو أبياه. وقد صرَّح الإمام القرطبي بذلك في تفسيره العظيم فقال في قوله تعالى {فَمَنْ اعْتَدَ عَلَيْكُمْ}: "من ظلمك فخذ حرك منه بقدر ظلمتك، لا تتعذّر إلى أبيه ولا إلى ابنه أو قريبه" (الجامع لأحكام القرآن 360/2). كتبت هذا المعنى في مقالة سابقة فأرسل لي أخ كريم مؤيداً، ونقل إجماع العلماء على تحريم قتل المجاهدين لنساء وصبيان المحاربين ما لم يقاتلوا، قال جزاه الله خيراً: "حَكَى هَذَا الإِجْمَاعُ أَبْنَ حَزْمَ فِي مَرَاتِبِ الإِجْمَاعِ (ص 201) وَالنَّوْوَى فِي شَرْحِ صَحِيفَةِ مُسْلِمِ (12/48) وَابْنِ حَمْرَى فِي فَتْحِ الْبَارِيِّ (6/147)، وَغَيْرُهُمْ".

يا أيها المؤمنون: إن الدين يمنع القتل العشوائي والانتقام الأعمى فيقول: {لَا تَزِرُوا زِرَةً وَرَزِيرَةً}، والدين والعقل يعصمان دم البريء الذي لم يقتل ولم يشارك في القتل ولم يُعْنِ عليه أو يحرّض عليه، والدين والعقل والفطرة الإنسانية تحرم جميعها قتل طفل لا يعقل ولم يكُلَّ ولا حساب عليه ولا عقاب. لو أن أحدهم ذبح طفلي بالسكين وعرفته وصار طفله في يدي، هل يمكن أن أُنْبِحَه بالسكين؟ هل أستطيع أن أقتل طفلاً عمره شهر أو عام أو أعوام لأن أبيه مجرم قاتل؟ لا أعلم عن غيري، أما أنا فلن أضيع آخرتي لأنّي لأنّي عن كرب من كروب دنيا، وقد أمضيت خمسين سنة وأنا أبني إنسانيّتي، فلن أسفها في لحظة انتقام عمياً.

أيها السادة، أيها الثوار وأيها المصابون والمفجوعون والمكلومون: الله يعلم أنّي يغلي قلبي من الغضب كما تغلي قلوبكم،

وإنْ كنتم فقدتم أحبة على أيدي أولئك المجرمين فقد فقدت من قبلكم حالة حبّيبة وأقرباء قربين لا أنساهم، وإنني لأتمنى أن يشفى الله قلبي فأرى نزول القضاء بأولئك المجرمين، ولو أن الله عاقبهم بأولادهم لما باليت بهم، ولكنني لا أفتر بيدي حراماً، فإن الدين والآخرة يقدّمان على الهوى ووازع الانتقام، ولا يُفلح من خرب آخرته لعمارة دنياه. ألا يرضيكم أن تتركوا الانتقام منهم لله المنتقم الجبار؟ هل تبلغ بكم قلة اليقين والثقة بعدلة الله أن تصرّوا على الاقتصاص بأيديكم ولو بما يخالف شرع الله؟ معاذ الله أن تفعلوا، فاصبروا، فما يوم الحساب ببعيد، ولسوف ترون حساب الله لأولئك المجرمين معروضاً أمام الخالق أجمعين، ويومئذ ينتصف المظلومون، ويومئذ يفرح المؤمنون.

المصدر : الزلزال

السوري

المصادر: